عندما اكتشفناه في المرة الثانية، وقد تآكلته العقبان في المكتب نفسه، بالبزة نفسها وعلى الوضع نفسه، لم يكن أحد منّا مسنّاً بما يكفي كي يتذكر ما حصل في المرة الأولى، إلا أننا كنا ندرك انعدام أية حجة بيّنة على موته بما أن كل حقيقة تخفي دائماً حقيقة أخرى. وحتى الأقل حذراً لم يكونوا ليثقوا بالمظاهر، ولقد تأكد مراراً أن الصّرع كان يفتك به فينهار على عرشه في غمرة الاجتماع، متلوياً من جراّء التشنجات ومتقيئاً رغوة من المرارة، لقد فقد صوته من طول ما خطب، وكان هناك مقماقون[١] مختفون خلف الستائر ليوهموا الجمع بأنه هو الذي يتكلّم، وكانت حراشف سمكة شابل تنبت على جسده لتقتصّ منه جزاء فساده، وفي برودة (ديسمبر) كان فتقه يعزف له طنين الموسيقى ولم يعد قادراً على التنقل إلا بواسطة مقعد مقوّم للأعضاء يجرجر فيه خصيته المفتوقة، ولقد قامت عربة عسكرية في منتصف الليل ومن باب الخدمة بتسليم نعش مع أغشية ذهبيّة وزخارف أرجوانية، ورأى أحدهم ليتسيا نازارينو تنفجر باكية في حديقة المطر، ورغم ذلك، وعندما تتأكد شائعة موته أكثر كان يلوح أكثر حياة وأكثر سلطة من السابق في اللحظة الأقل افتراضاً كي يفرض علينا مرافئ أخرى غير مواتية تتخلل بحر مصيرنا. كان من السهل اللجوء إلى الاقتناع بالعلامات الظاهرة للخاتم الرئاسي أو بالحجم الفائق لقدميه، قدمي المشّاء الذي لا يكل أو بالوضوح الشاذ

لتلك الخصية الضخمة التي لم تجرؤ العقبان على نقرها، ولكن لا بد من وجود شخص ما لا يزال يحتفظ دائماً بذكرى حول علامات أخرى مشابهة لدى موتى آخرين أقل أهمية في الماضي. وحتى التفحص المتناهي الدقّة للبيت لم يقدم هو الآخر أي عنصر ذي قيمة لإثبات هويته. وفي حجرة بندثيون ألفارادو، التي نسينا تقريباً مهزلة تقديسها بمرسوم، وجدنا بعض الأقفاص مفتوحة وفيها هياكل صغيرة لطيور حجّرتها السنون، شاهدنا مقعداً من أغصان السوحر وقد قضمته الأبقار، شاهدنا علباً للرسم المائي وآنيات ريش الرسم التي كانت تستعملها مربيات الطيور في المرتفعات لكي يبعن في الأسواق الشعبية طيوراً ذاوية ملونة بألوان الصّفاريات، شاهدنا جرة وفيها غرسة ترنجان واصلت نموّها في النسيان فتسلقت أغصانها الجدران، لتخرج عبر العيون في اللوحات ومن النافذة لكي تتشابك في النهاية مع الأوراق البريّة في الباحات الأخرى، غير أننا لم نعثر على أي أثر يدلّ على حضوره الفعلي في الغرفة. وفي غرفة عرس ليتسيا نازارينو التي لنا عنها صورة أكثر وضوحاً لأنها حكمت خلال فترة قريبة العهد ولأن تصرفاتها العلنية أصبحت أحدوثة، شاهدنا سريراً صالحاً لأفراح الجسد مع قبّة من قماش التول تحولت إلى خم للبيض، شاهدنا في الخزائن بقايا ياقات من فرو الثعالب المفضّضة وقد قرضها العثّ، هياكل التنانير المسلكة القاسية القماش، وغبار التنانير الداخلية المقرس، وصدارات من تخريمات بروكسيل، أحذية الرجال النصفية التي كانت تحتذيها والخفاف الساتانية ذات الكعب العالي والسيور وكانت تنتعلها عند الاستقبالات، والقبعات ذات البنفسجات اللبديّة وشرائط التفتا إبّان رونقها الجنائزي كسيدة

البلاد الأولى وثوب الترهب الكتاني الخشن مثل جلد خروف أغبر والذي أحضرت فيه من جامايكا محبوسة في صندوق من بلّور بكارا الفرنسي الشفاف لكي تجلس على كرسيها المنجد رئيسة مترهبّة، إلا أننا لم نجد أي أثر يبرهن لنا بأن عملية الحبس على طريقة القراصنة تلك، إنما كانت بوحي من الحب. وفي الحجرة الرئاسية، وهو المكان الذي قضى فيه الجزء الأكبر من سنواته الأخيرة، لم نجد سوى سرير ميدان غير مستعمل، ودلو صحيٍّ كالذي يجلبه بائعو الأثريات من البيوت التي هجرها المارينز، وخزنة حديدية تحتوي على أوسمته الاثنين والتسعين مع بزّة كتانية بلا شارات مثل التي ترتديها الجثة، مثقوبة بست رصاصات من العيار الكبير وقد أحدثت أضرار حريق باختراقها الظهر وبروزها من الصدر، ما دعانا إلى التفكير بأن تلك الأسطورة القائلة بأن الرصاص الذي يطلق عليه من الخلف غدراً، يخترقه من دون أن يجرحه، إنما كانت أسطورة صادقة، وإن الطلقة التي تطلق عليه من الأمام ترتد، بعد ملامسة جسده، على المعتدي، وإنه لم يكن قابلاً للانجراح إلا برصاص شفقة الشخص الذي يحبُّه إلى درجات الموت بدلاً منه. كانت البزّتان جدَّ ضيقتين بالنسبة للجثة، غير أننا لم نستبعد إمكانية أن تكونا له، إذ تم التأكد أيضاً في مرحلة معينة أنه واصل النمو حتى مائة عام وإنه بعد مائة وخمسين عاماً نمت أسنانه للمرّة الثالثة، وفي الواقع مهما كان الجسد المشوه بالعقبان جسد رجل ذي قامة معتدلة، فإن أسنانه كانت سليمة، صغيرة ومثلمة مثل أسنان الرضاعة، وكان جلده، ولونه بلون المرارة، مبقعاً ببقع الشيخوخة، وخالياً من الندوب مع جيوب متورّمة في كل مكان كما لو أنه كان سميناً فيما مضى، ولم يبق له تقريباً سوى

المحجرين الخاليين من عينيه اللتين كانتا قديماً صامتتين، والشيء الوحيد الذي كان خارج مقاييس التناسب، إلى جانب الخصية المتورّمة، هما قدماه الضخمتان المربّعتان المفلطحتان، مع مخالب صقر صخرية معقوفة. وإذا كانت الملابس ذات قياسات بالأحرى صغيرة، فإن وصف مؤرّخيه لها كان وصفاً من الحجم الكبير، إذ أن النصوص الرسمية في المدارس تقدمه بوصفه بطريركاً عملاقاً لا يخرج البتّة من بيته لأنه لا يستطيع اجتياز الأبواب، يحبّ الأطفال والسنونو ويعرف لغة بعض الحيوانات وله ملكة في توقع خطط الطبيعة كما أنه يسبر الأفكار بالنظر في عينيك ويملك سرّ ملح يداوي جراح البرصى ويعيد الحركة لأعضاء المشلولين. ورغم خلوّ النصوص من أي تلميح لأصله، فقد جرى الاعتقاد بأنه رجل آت من عزلة الصحارى حسب ما كانت توحي به شراهته للسلطة وطبيعة حكمه وقسوة قلبه المتناهية التي دفعته إلى بيع بحرنا لقوة أجنبية، حاكماً علينا بالعيش أمام سهل بلا أفق يغطيه غبار قمري خشن ويصيبنا كل غسق فيه بجراح تسكن الروح. ويقدر عدد الأطفال الذين أنجبهم خلال حياته الطويلة بأكثر من خمسة آلاف طفل، كلهم ولدوا قبل الأوان، من عشيقات دون حبّ لا يحصى لهن عدد وكن يتوالين على حريمه كلما جمحت به الشهوة، ولم يحمل أي من أولئك الأطفال اسمه أو لقبه، إذا استثنينا ذلك الطفل الذي أنجبته ليتسيا نازارينو والذي سمّي منذ ولادته جنرالاً ذا إقليم وقيادة، إذ أنه كان يعتبر أن لا أحد هو ابن أحد إن لم يكن ابن أمّه فقط. ويبدو هذا اليقين صحيحاً حتى بالنسبة إليه إذ أنه من المعروف أنه كان رجلاً بلا أب مثل الطغاة الأكثر شهرة في التاريخ، وقريبه الوحيد الذي عرف، وربما الوحيد حقاً، هو أمه العزيزة،

بندثيون الفارادو التي تنسب لها كتب المدارس معجزة كونها حبلت به ولم يمسسها بشر واستلمت في المنام المفاتيح الخفيّة لرسالته الإنقاذية، أمه التي أعلنها بمرسوم أم الوطن بفضل هذا البرهان البسيط على أن ليس هناك سوى أم واحدة، أمّي، امرأة غريبة الأطوار ذات أصل مريب أثارت روحها البسيطة استنكار المتعصّبين للشهامة الرئاسية في فجر عهده إذ لم يكونوا يجيزون أن تعلّق أم رئيس الدولة كيساً من الكافور حول عنقها لاتقاء شر الأوبئة، وأن تأكل الكافيار محاولةً تمرير حبيباته في أسنان شوكتها أو أن تمشي مثل بطّة في خفّها المبرنق، كلا، لم يقدروا على التسليم بأن تؤوي خلايا نحل في شرفة قاعة الحفلات الموسيقية، ولا أن تربّي ديكة رومية وطيوراً مطليّة بالدهان المائي في مكاتب الخدمات العامة أو أن تنشر أغطية الأسرّة على الشرفة الرسمية، لم يقدروا على تحمّل سماعها وهي تقول له خلال استقبال دبلوماسي سئمت الصلاة إلى الله كي تتم الإطاحة بابني إذ أن العيش في المنزل الرئاسي يا سيدي الطيب يشبه إنْ قليلاً أو كثيراً البقاء في أيما ساعة والنّور مضاء، قالت ذلك بلا تصنّع، تماماً مثلما ذات يوم من أيام الأعياد الوطنية اجتازت حرس الشرف بطريقة طبيعية حاملة سلة من القوارير الفارغة والتحقت بسيارة الليموزين الرئاسية التي أخذت تشق موكب الأفراح عبر هرج ومرج هتافات حماسية وأناشيد وطنية وزوابع من الزهور، ثم وضعت سلتها في السيارة من البوابة صارخة بابنها بما أنك ستمرّ من هناك انتهز الفرصة لتعيد هذه القناني إلى الدكان الذي عند الزاوية، يا للأم الساذجة. وكان لانعدام الحس التاريخي هذا أن يبلغ ذروته ذات مساء، خلال مأدبة احتفال أعددناها لمناسبة نزول المارينز بقيادة الأميرال

هغنغسون، عندما رأت بندثيون ألفارادو ابنها في بزّته العظيمة مع الميداليات الذهبية وقفازي الساتان التي توجب عليه ارتداؤها مدى الحياة، وعندما لم تستطع كبح جماح كبريائها الأمومي صارخة بأعلى صوتها أمام السلك الدبلوماسي بكامله: لو علمت بأن ابني سوف يصير رئيس جمهورية لكنت أرسلته إلى المدرسة، آه يا سيدي، وكانت الفضيحة بحيث نفيت إلى مقر في الضواحي، وهو قصر ذو إحدى عشرة غرفة ربحه في لعبة النّرد ذات ليلة معطاء عندما تقاسم قادة الحرب الفيدرالية حول طاولة اللعب مقر إقامة المحافظين الهاربين المدهش، وباستثناء ازدراء بندثيون الفارادو للزخارف الامبراطورية التي تجعلني أفكر بأنني زوجة قداسة البابا فقد فضلت أن تتقاسم حجرات الخدمة مع خادماتها الست الحافيات واستقرت مع آلة خياطتها وأقفاص طيورها المبرقشة في السقيفة المنسية حيث كانت الحرارة لا تصل وكان من السهل اصطياد البعوض في الساعة السادسة، كانت تجلس لتخيط في الضوء الخافت في الفناء الكبير مستنشقة هواء أشجار التمر الهندي الصحّي بينما الدجاجات تتيه في الصالونات ورجال الحراسة يرصدون الخادمات في الحجرات المقفرة، وكانت تجلس لتدهن الصّفاريّات بالطلاء المائي وتشتكي وخادمات النحس من سلوك ابني المسكين الذي جرجره البحارة إلى البيت الرئاسي، بعيداً يا سيدي الطيّب عن أمّه، من دون زوجة متفانية كي تساعده في منتصف الليل إذا ما أقضّ مضجعه داء، وهو ينهك نفسه بوظيفة رئيس الجمهورية هذه، مقابل راتب بائس من ثلاثمائة بيزو شهرياً، يا لحبيبي الصغير. وكانت تدرك جيداً عمّا تتحدّث، إذ أنه اعتاد زيارتها يومياً ساعة تتخبط المدينة في حمى القيلولة، وكان يأتي

لها بالثمار المعقدة بالسكر، المولعة بها وينتهز الفرصة ليطلق مكبوتاته قربها متشكياً من وضعه المقرف المسخَّر للبحارة، ويروي لها كيف أنه يضطر إلى إخفاء البرتقال المعقّد، والتين مع شراب السكر في الفوطة لأن سلطات الاحتلال لها محاسبون يسجلون في كتبهم كل شيء حتى فضالة الطعام، ويتذمر، ذات يوم ليس ببعيد جاء قائد البارجة إلى مقر الرئاسة مع قوم، لو أنك رأيتهم لقلت هم فلكيو اليابسة ثم إنهم قاسوا كل شيء ولم يتفضلوا حتى بتحيتي غير أنهم مرروا متراً قماشياً فوق رأسي وأخذوا يقومون بحساباتهم بالإنكليزية، وكان المترجم يزعق بي ابتعد من هنا، وكان يبتعد، اغرب عن شمسي، وكان يبتعد، اختبئ في زاوية حتّى لا تضايقنا، يا للفوضى، لم يعد يعرف أين يقف من دون أن يزعجهم إذ أن بعض المسّاحين بالمتر كانوا يقيسون حتى نور الشرفات، ولكن الأدهى، أمّاه، هو أنهم طردوا محظيتيه الأخيرتين الكسيحتين لأن الأميرال رأى أنهما غير جديرتين برئيس، وظلّ محروماً من النساء إلى حدّ أنه في العديد من الأماسي كان يتظاهر بمغادرة قصر الضاحية إلا أن أمّه كانت تسمعه وهو يغازل الخادمات في ظليل الحجرات، وكانت تحزن لذلك إلى درجة أنها كانت تعمد إلى إزعاج الطيور في أقفاصها كي لا يفاجئ أحد كبت ابنها، وترغمها على الغناء حتى لا يسمع الجيران صخب الهجوم، خزي الاغتصاب والتهديدات المكبوحة ابق عاقلاً سيدي الجنرال وإلا سأخبر أمك، كانت تقطع قيلولة طيور السرب مرغمة إياها على الشدو بأعلى صوتها حتى لا يسمع لهاثه الذي لا يرحم، لهاث المتزوج في حالة نزو، وحظّه العاثر، حظّ العاشق وهو بكل ثيابه، وتباكيه، تباكي الجرو الصغير، ودموعه المتوحّدة الدكناء التي كانت تبدو

كأنها تتعفّن بؤساً تحت قوقأة الدجاجات الجفلة في الحجرات من هذا الغرام اللجوج والطقس مثل الزجاج الذائب في شهر أغسطس اللعين، والساعة الثالثة بعد الظهر، يا لصغيري المسكين. وكان على هذا القحط أن يدوم حتى هجرة قوات الاحتلال من البلاد فزعاً من وباء الطاعون في حين كانت سنوات عديدة لا تزال تفصلهم عن ساعة الإبحار، ففكّكوا مساكن الضباط ورقّموها القطعة بعد القطعة ثم أغلقوا عليها في الصناديق، واقتلعوا آخر عشبة في السهول الزرقاء وحملوها مطويّة مثل السجادات، وغطوا خزانات المياه المعقمة المطاطية المرسلة إليهم من بلادهم كي لا تتمكن يرقانات روافدنا من أكلهم داخلياً، هدموا مستشفياتهم البيضاء، ونسفوا الثكنات كي لا يعلم أحد كيف بُنيت، وعلى الرصيف هجروا بارجة الإنزال القديمة التي ظل يطوف على جسرها، في ليالي حزيران، شبح أميرال تائه في زوبعة، إلا أنهم قبل أن يحملوا فردوس الحروب المتنقلة، هذا، في قطاراتهم الطائرة، قلدوه ميدالية حسن الجوار، وقدموا له كل التشريفات التي تليق برئيس دولة وقالوا له بصوت عالٍ حتى يسمع الجميع لقد تركناك هنا مع فوضى زنوجك كي نرى كيف تتدبر أمرك من دوننا، ولكنهم رحلوا، أماه، يا للفوضى، لقد هجرونا، وللمرّة الأولى منذ تلك المرحلة الطويلة التي قضاها ثوراً مهاناً من الاحتلال صعد درجات الحكومة وقادها بصوت عالٍ وبصفته الشخصية عبر الصخب الذي كان يتوسل إليه أن يعيد صراع الديكة، حسناً، أعيده، وأن يسمح من جديد بطيارات الورق وتسليات أخرى للفقراء منعها، حسناً أسمح بها، وكان واثقاً من استبداده إلى حدّ أنه عكس ألوان العلم وبدّل القبعة الفريجية[٢] التي على الشعار بتنين الغزاة

المندحرين، ذلك أننا أخيراً أصبحنا السادة، أمّاه، عاش الطاعون. وكان على بندثيون الفارادو أن تتذكر طيلة حياتها هذه الانتفاضات في السلطة وأخرى غيرها أكثر قدماً وأشد مرارة، غير أنها لم تذكرها قط بإرهاق بالغ مثلما فعلت بعد عملية الخداع المأتمية، عندما كان يتخبط في بركة الرخاء بينما هي تواصل نحيبها لعدم وجود شخص ينصت إليها، لا جدوى من أن تكون أم رئيس كلا، وهل ذلك إلا لامتلاك آلة الخياطة الكئيبة هذه ولا شيء سواها، أما ابني المسكين هذا الذي تشاهده في مركبته وسط شارات السلطة فليس له ولو حفرة كي يموت فيها بعد أن خدم الوطن كل هذه الفترة الطويلة، آه، يا سيدي الطيب، أين هي العدالة، زد على ذلك أنها لم تعد تشتكي عن عادة أو خديعة وإنما لأنه انقطع عن إخبارها بخيباته وكفّ عن الاندفاع نحوها ليقاسمها الأسرار الكبيرة للدولة، ولقد تغير منذ مرحلة قوات الإنزال إلى حد أن بندثيون ألفارادو صارت تجده أكبر سنّاً منها، لقد أحرق الوقت وسبقها في حصاد الزمن، وكانت تشعر بأنه صار يرتبك في الكلام، وتختلط عليه الحسابات اليومية، وأحياناً كان لعابه يسيل، ولقد اجتاحتها رأفة البنوّة لا الأمومة عندما رأته يقبل إلى مقرها في الضاحية محملاً برزمات كان يحاول فتحها كلها بعنف وفي وقت واحد، فكان يقتلع الأسلاك بأسنانه، ويكسر أظافره على شرائط اللف الحديدية من دون أن يترك لها وقتاً لتبحث عن المقص في سلة خياطتها، ويخرج كل شيء بكلتا يديه من أكوام النجارة متورّطاً في لهفة اندفاعه انظري إلى هذا قليلاً هه، ماما، كان يقول، عروس بحر حيّة في حوضها، ملاك من قياس طبيعي يعبأ فيطير عبر الغرف معلناً عن الساعة بواسطة جرس، صَدَفة ضخمة يسمع

فيها النشيد الوطني عوض سماع البحر أو الريح، يا لها من أشياء رائعة، ماما، هل رأيت ما أجمل ألا نعيش في البؤس، يقول، إلا أنها لم تكن تبدي فرحها، بالعكس فقد شرعت في عضعضة الريش وتلوين الصفّاريات إذ لا ينبغي أن ينتبه إلى أن قلبها كان يتمزّق حسرة وهي تتذكر ماضياً تعرفه أحسن مما يعرفه أيّ كان، تتذكر، وماذا كلّفه الجلوس على ذلك الكرسي حيث كان يجلس، ليس في هذه الأيام، سيدي الطيب، ليس في هذه الأيام السهلة حيث السلطة شيء ملموس وقضية شخصيّة، كرة من زجاج في كفّ اليد، كما يقول، ولكن عندما كانت السلطة سمكة شابل تسبح هاربة بلا ربّ أو قانون في قصر الفوضى، ملاحقة بسرب ضار ونهم من آخر قادة الحرب الفيدرالية الذين ساعدوني على الإطاحة بالجنرال الشاعر لوتارو مونيوز، وهو مستبد مستنير رحمه الله مع كتبه المقدسة اللاتينية لسويتون(٢) وجياده الأصيلة الاثنين والأربعين ولكنهم مقابل الدعم المسلّح استولوا على مزارع قدماء السادة المنفيين ومواشيهم وتقاسموا البلاد مقاطعات مستقلة متعلّلين بهذه الحجة غير المجدية، هذه هي الفيدرالية سيدي الجنرال، إنما من أجل ذلك أهرقنا دماءنا، وحكموا في أراضيهم حكماً مطلقاً، بقوانينهم الخاصة، وأعيادهم الوطنية، وأوراقهم الشخصية، وبزاتهم العظيمة مع السيوف المرصعة بالجوهر، وستراتهم ذات العرى الذهبية، والقبعات ذات القرون الثلاثة وريش الطواويس، المستعارة من رسوم قدماء ملوك الوطن، وكانوا غير مهذبين وعاطفيين، يا سيدي، ويدخلون إلى قصر الرئاسة من البوابة الكبرى من دون إذن لأن الوطن ملك الجميع سيدي الجنرال، وقد ضحينا بحياتنا كي يصير كذلك، كانوا يخيّمون في قاعة الاحتفالات

مع نسائهم وذريتهم، وحيوانات مزارعهم التي يعدّونها بمثابة ضرائب السلام أينما حلّوا كي يجدوا دائماً ما يقتاتون به، وكانوا يسحبون وراءهم مرافقيهم من المرتزقة المتوحشين الذين يلفون أقدامهم بالخرق بدلاً من احتذاء الجزم ولا يكادون يتكلمون لغة المسيحيين إلا أن أحداً لم يكن يجاريهم في الخداع أثناء لعبة النرد، واستعمال الأسلحة بمهارة فائقة بحيث أصبح بيت السلطة شبيهاً بمخيم للغجر، نعم يا سيدي، صارت له عفونة نهر فائض، ونقل ضباط مجلس القيادة أثاث الجمهورية كله، إلى مزارعهم، وكانوا يلعبون الدومينو على امتيازات الحكومة غير مبالين بتوسلات أمّه بندثيون الفارادو التي كانت تحاول جاهدة كنس كل أوباش حفلة الغابات تلك، وكانت الوحيدة التي أرادت ملاحقتهم بضربات المكنسة عندما رأت البيت ملوثاً بأولئك التافهين الذين يتنافسون بلعب الورق على سلب مقاعد القيادة العليا، لقد رأتهم ينصرفون إلى ممارسة أعمالهم اللوطية الوسخة خلف البيانو، لقد رأتهم يتغوّطون في أواني المرمر رغم إنذاراتها، كلا، يا سادتي، هذه ليست أسطلاً صحية وإنما هي أوانٍ أثرية وجدت في مياه بانتلاريّا، لكنهم كانوا يصرّون على أنها مراحيض أغنياء يا سيدي، وما من قدرة إنسانية استطاعت إقناعهم بعكس ذلك، مثلما لم تستطع أية قدرة إلهية أن تمنع الجنرال أدريانو غوزمان من حضور الحفلة الدبلوماسية التي أعدّت لمناسبة الذكرى العاشرة لارتقائي رئاسة الدولة، ولكن من كان ليتصوّر ماذا كان ينتظرنا عندما ظهر في قاعة الرقص ببزّة الكتان البيضاء الخشنة التي انتقاها للمناسبة، وكان غير مسلح كما وعدني مقسماً بشرفه العسكري، مع مرافقيه من اللاجئين الفرنسيين في ثياب مدنية محمّلين بهدايا

أنثوريوس كايينا التي وزعها الجنرال أدريانو غوزمان واحدة بعد الأخرى على زوجـات السـفـراء والوزراء بعـد أن طلب الإذن بانحنائه أمـام أزواجهن، إذ أن مرتزقته أخبروه أن ذلك من قبيل اللياقة والأدب في فرساي، ما جعله يؤدي ذلك بذوق رجل المجتمع، وبعد ذلك مكث جالساً في زاويتـه، مـركّزاً انتبـاهه على الراقـصين، فكان يؤيدهم برأسـه مستحسناً، رائع، يقول، متأنقو أوروبا يرقصون جيداً، يقول، لكل اختصاصه، يقول، وكان منسياً في كرسيه المنجّد بحيث كنت الوحيد الذي تفطّن إلى أن أحد مرافقيه كان يملأ له قدحه بالشامبانيا كلما ابتلع القدح السابق، ومع مرور الساعات كان يبدو أكثر صرامة وأكثر دموية من العادة، وكلما هزته جشأة مخنوقة فتح زراً من أزرار بزته التي بلّلها العرق، وكان يكابد النعاس، أمّاه، عندما نهض فجأة بصعوبة خلال توقف الرقص وانتهى بأن فك سترته، ثم فك أزرار فتحة بنطاله واندفع مثل الأنبوب مرشرشاً فساتين السفيرات والوزيرات المقوّرة والمعطرة بأنبوبه الذاوي، أنبوب العقاب العجوز، فأغرق أحضان الموسلين الناعمة، وصدارات الدّيباج والذهب، ومراوح ريش النعام، ببول الجندي السكير الحامض وهو يغنّي هادئ الأعصاب رغم انتشار الهلع العام، أنا عاشق نفورك ولهان، اسقي الورود في بستانك الظمآن، أيتها الورود ما أشهاك، كان يغني دون أن يتجرأ أحد على عرقلته، ابتداء منّي أنا، إذ كنت أعرف أن لي من النفوذ أكثر من أي واحد منهم على حدة ولكن أقل بكثير من أيّما اثنين متواطئين منهم، غير مدرك بعد أنه إنما كان يرى الآخرين كما كانوا في حين لم ينجح الآخرون قط في استشفاف الفكرة الخفيّة للشيخ الصوّاني برصانته التي لم يكن يدانيها سوى حذر

دقيق وميل إلى الانتظار لا حدود له، ولم نكن نرى سوى العينين الكئيبتين، والشفتين المتصلّبتين، ويدي الفتاة المحتشمة اللتين لم ترتجفا قط على مقبض السيف خلال منتصف ذلك النهار الرهيب عندما أخبر بالنبأ سيدي الجنرال القائد نارسيزو لوبيز المدمن على الكوكائين والأنيسون اختلى في المرحاض بأحد حرّاسك الشبان، جعله ينتعظ مثل امرأة متهيجة ثم أجبره على أن يدخله له، ستدخله فيّ كله، انتبه، هذا أمر، كلّه، يا حبيبي، وحتى خصيتيك، وهو يبكي ألماً وغيظاً، حتى اللحظة التي وجد نفسه فيها مرتمياً على أربع وهو يتقيأ من الإذلال، ورأسه في بخار حوض المرحاض النتن، عندئذ رفع ذلك «الأدونيس[٤]» الصغير في بزته العسكرية وسمّره بواسطة رمح مثل فراشة على البسط الربيعية لقاعة الاجتماعات من دون أن يجرؤ أحد على اقتلاعه قبل ثلاثة أيام، المسكين، أما هو فكان يكتفي بمراقبة رفاقه القدامى في السلاح كي لا يتآمروا ولكن دون التدخل في حياتهم الخاصة، مقتنعاً بأنهم سوف يقضون على بعضهم البعض قبل أن يحاط علماً بالنبأ سيدي الجنرال الأمر يتعلق بالجنرال يسوع المسيح سانشيز فقد اضطرّ مرافقوه إلى قتله ضرباً بالكراسي لأنه أصيب بنوبة كَلَب بعد أن عضّه قط، المسكين، ولم يرفع نظره عن قطع الدومينو حتى وُشوش إليه بالخبر سيدي الجنرال لوتاريو سيرينو غرق إذ أن حصانه مات فجأة وهو يجتاز نهراً، المسكين، نعم لم يكد يقطّب حاجبيه حتى أعلم بالنبأ سيدي الجنرال، الجنرال نارسيزو لوبيز أدخل عبوة ديناميت في مؤخرته ونسف أمعاءه خزياً من شذوذه الجنسي المتأصل، وكان هو يعلّق المسكين كما لو أن أحداث الموت الشائنة تلك لم تكن تعنيه، وأصدر مرسوماً يحتفظ بشرف

ما بعد الموت للجميع، وأعلن أنهم شهداء سقطوا في خدمة الوطن ودفنوا بمواكب جنائزية رائعة على مستوى الارتفاع نفسه في مدفن عظماء الأمة، ذلك أن وطناً بلا أبطال إنما هو بيت بلا أبواب، كان يقول، وعندما لم يبق سوى ستّة جنرالات حرب في كامل البلاد استدعاهم للاحتفال بعيد مولده في القصر مع شلة من الأصدقاء، كلهم دفعة واحدة، سيدي، بمن فيهم الجنرال خاثينتو ألغارابيا الأكثر غموضاً ودهاء، والذي كان يتبجّح بأنه أنجب طفلاً من أمّه ولا يشرب سوى كحول مستخرج من خشب معطّن بالبارود، ها نحن وحدنا في قاعة الاحتفالات كما في الزمن الغابر سيدي الجنرال، كلنا بلا سلاح مثل إخوة في الرضاعة ولكن مع مرافقينا المتكتلين في القاعة المجاورة، وكلهم محمّلون بهدايا رائعة للشخص الوحيد بيننا الذي عرف كيف يفهمنا جميعاً، كانوا يقولون، وإنما كانوا يعنون بذلك الوحيد الذي استطاع أن يديرنا بدهاء، الوحيد الذي استطاع أن يخرج الجنرال الأسطوري ساتورنو سانتوس من وكره النائي في الصحارى، هندي حقيقي ومريب، كان يمشي دائماً مثلما خرج من حضن أمّه الداعرة ورجلاه على الأرض سيدي الجنرال، أما نحن فلا نقدر على التنفس إذا لم نحس بالأرض تحت أقدامنا، لقد وصل متلفّعاً بغطاء مزخرف بحيوانات غريبة ذات ألوان فاقعة، وحيداً كعادته، بلا مرافقين، تسبقه نسمة سوداء، ولم يكن سلاحه سوى ساطور قطع القصب الذي رفض أن ينزعه من نطاقه إذ أنه ليس سلاحاً حربياً وإنما سلاح عمل وقدم لي نسراً مروّضاً من أجل حروب الإنسان، وقيثارة، أمّاه، الأداة المقدّسة التي كانت علاماتها الموسيقية تتضرع إلى العاصفة وتسرّع في دورات الحصاد والتي كان الجنرال

سانتوس ينقر عليها بمهارة عاطفية أيقظت فينا جميعاً ذكريات ليالي الرعب في زمن الحرب، أمّاه، وحركت فينا رائحة كلبة الحروب الجرباء، التي أثارت في ذاكرتنا أنشودة مركب الحرب الذهبي(٥) الذي عليه أن يأخذنا، وبدأوا الإنشاد معاً من أعماقهم، عدت من الميناء مغرورق العينين، كانوا يغنّون وهم يتناولون دجاجة رومية محشوة بالخوخ المجفف ونصف خنزير رضيع، وكل واحد منهم يشرب رأساً من زجاجته، كل واحد يحتسي كحوله الخاص، كلهم ما عداه هو والجنرال ساتورنو سانتوس الذي لم يشرب في حياته ولو قطرة من مشروب روحي، ولم يدخّن، ولم يأكل سوى اللازم الضروري، وأنشدوا إكراماً لي أنشودة الصباحات التي كان ينشدها الملك داوود، وأنشدوا وهم يبكون كل أغاني التهاني بعيد المولد المنغّمة قبل وصول القنصل هانيمان ببدعة جديدة، سيدي الجنرال، «الغراموفون» وإسطوانة Happy Birthday، وأخذوا يغنون نصف نائمين، نصف هالكين، بعد تلك الفظاظة، كفوا عن الاكتراث لذلك العجوز الصموت الذي أخرج مصباحه مع دقة منتصف الليل وذهب يتفقّد البيت قبل الركون إلى النوم طبقاً لعادة رجل ثكنة والذي رأى لآخر مرّة خلال عودته وهو يمر بقاعة الاحتفالات، الجنرالات الستّة متقلّصين على الأرض، متحاضنين، ساكنين ووديعين، تحت حماية المجموعات الخمس من المرافقين الذين كانوا يراقبون بعضهم بعضاً، إذ كانوا يخشون بعضهم بعضاً، حتى وإن كانوا نائمين ومعرقلين تماماً مثلما كان يخشاه كل واحد منهم تقريباً، ومثلما كان هو يخشاهم عندما يختلي اثنان منهم ببعضهما من أجل التآمر، ثم أعاد تعليق المصباح فوق الباب وأغلق المزاليج الثلاثة، والدعامات الثلاث، ورتاجات مخدع نومه الثلاثة، ونام

أرضاً على بطنه وساعده الأيمن منثنياً تحت رأسه على هيئة وسادة، في اللحظة التي اهتزت مداميك المنزل بانفجار كثيف من كل أسلحة المرافقين التي انطلق رصاصها دفعة واحدة، مرّة أولى، يا للفوضى، بلا انقطاع، بلا تأوه، ثم مرّة ثانية، يا للفوضى، انتهى الأمر انتهى الإزعاج، ولم يبق في صمت العالم سوى رائحة البارود، ولم يبق سواه سليماً معافى إلى الأبد بعد هذه المحاولة لإزالة السلطة، ورأى عبر الألوان الخبازية لليوم الجديد حرس الخدمة وهم يتخبطون في مستنقع قاعة الاحتفالات الدامي، رأى أمّه بندثيون ألفارادو يغشى عليها من الهول وهي تكتشف بأن الدم كان ينضح من الجدران رغم تجفيفه بالكلس وبالرماد، نعم، يا سيدي الطيب، كانت السجادات تواصل قذف الدم حتى وهي ملويّة، كان الدم يتدفّق سيولاً عبر الأروقة والمكاتب التي بذلت كل الجهود لغسلها وإخفاء مدى امتداد المذبحة التي تمّ فيها القضاء على آخر ورثة حربنا، هؤلاء الذين حسب البلاغ الرسمي اغتيلوا من قبل مرافقيهم وقد ثار جنونهم، فزينت جثثهم الملفوفة في علم الوطن مدفن عظماء الأمّة بعد مآتم جنائزيّة فخمة، إذ لم ينجح أي واحد من المرافقين في الخروج حياً من الشرك المأساوي، كلا، لا أحد سيدي الجنرال باستثناء الجنرال ساتورنو سانتوس الذي كان محصناً بسبحاته الكتفيّة وكان ملمّاً بأسرار الهنود في مجال المسخ والتحول لدى الحاجة، يا للمخلوق الرجيم الذي كان قادراً على التحول إلى «أرمديل[٦]» أو إلى مستنقع سيدي الجنرال والذي كان قادراً على أن يصير رعداً، أمّا هو فقد أدرك أن كل ذلك كان حقيقة إذ أن أدهى جواسيسه أضاعوا أثره منذ عيد الميلاد، وأشرس كلابه المدرّبة كانت تبحث عنه في الاتجاه المعاكس،

لقد استدلّ عليه بواسطة العرّافات في أوراق اللعب وكان على هيئة ملك كبًا، وكان حيًّا، ينام نهاراً ويسافر أثناء الليل عبر الوديان والماء مخلّفاً وراءه سحابة من صلوات تشوش مدارك ملاحقيه وتشل إرادة أعدائه، أمّا هو فلم يتخلّ لحظة من الليل أو لحظة من النهار عن مطاردته طيلة سنوات وسنوات حتى تلك السنة التي رأى فيها من بوابة القطار الرئاسي حشداً من الرجال والنساء مع أطفالهم، وحيواناتهم وأدوات مطابخهم، وكان قد سبق له أن رأى مثلهم خلف الجنود أثناء الحرب، رآهم يمرّون تحت المطر حاملين مرضاهم على أسرّة معلّقة خلف رجل شديد الشحوب يرتدي سترة من كتّان القنّب ويزعم أنه مرسل من السماء سيدي الجنرال، عندئذ ضرب على جبينه، يا للقذارة، كان ذلك الجنرال ساتورنو سانتوس وهو يتسولّ إلى الحجّاج بقيثارته ذات الأوتار الناقصة، كان بائساً كئيباً تحت قبعته اللبديّة البالية ومعطف البونشو الممزّق، وحتى في تلك الحالة الحزينة البائسة، لم يكن من السهل القضاء عليه كما كان يفكر، فبعد أن قطع رؤوس ثلاثة من أفضل جنوده جابه الأكثر فتكاً بقدر عالٍ من الشجاعة والمهارة إلى حد أنه تمّ الإيعاز للقطار بالتوقف أمام المقبرة الكئيبة حيث كان مبعوث السماء يبشّر، وأسرع الجميع بالانسحاب عندما قفز الحرس الرئاسي وأسلحتهم بين أيديهم من المقطورة المطلية، بألوان الراية، ولم يبقَ أحد سوى الجنرال ساتورنو سانتوس قرب قيثارته الأسطورية، ويده ماسكة بقبضة ساطوره، كان يبدو مفتوناً برؤية العدو القاتل الماكث هناك على مقعد المقطورة، في بزّته الكتانية الخالية من الشارات، وهو من دون أسلحة، أكبر سناً وأكثر بعداً كما لو أننا لم نر بعضنا منذ قرن سيدي الجنرال، بدا لي متعباً ووحيداً، جلده الشاحب كمن

يعاني داء الكبد وعيناه دامعتان، ورغم ذلك كله كان له الإشراق الأكهب لذلك الذي ليس سيّد سطوته فقط وإنما سيد سطوةٍ زاحم عليها موتاه أيضاً، تهيأت إذاً للموت من دون مقاومة لفرط ما بدا لي أنه من غير المجدي معاندة شيخ أتى من البعيد من دون سبب آخر أو جدارة سوى نزعة القيادة، لكنه أظهر له باطن يده المشقق الأقرن وقال له ليحفظك الله. ماتشو، الوطن بحاجة إليك، إذ كان يعرف دوماً أنه لا يوجد سلاح آخر، ضد رجل لا يقهر، سوى الصداقة، ثم إن الجنرال ساتورنو سانتوس قبّل الأرض التي داسها وتوسل إليه: هب لي نعمة خدمتك كما تود سيدي الجنرال طالما ظلت ليدي القدرة على جعل هذا الساطور يغنّي، وقَبِل بذلك، حسناً، وجعل منه حارسه الخاص بشرط واحد هو ألا يمكث ورائي أبداً، واتخذه شريكاً في لعبة الدومينو فسلبا معاً وبأيد أربع هذه المرة العديد من المستبدّين المنكوبين، كان يرتضيه حافي القدمين في عربته الرئاسية ويصطحبه إلى حفلات الاستقبال الدبلوماسية رغم رائحة أنفاسه، أنفاس النمر التي تثير الكلاب وتصيب زوجات السفراء بالغثيان، كان يرغمه على النوم ليلاً أمام باب حجرته كي يشعر بخوف أقل من النوم عندما تصبح الحياة من المجازفة بحيث يرتجف لفكرة أن يوجد بمفرده مع أناس الأحلام، وأبقاه على مسافة إصبعين من ثقته، طيلة سنوات عديدة، حتى اليوم الذي شل فيه تبلّر بوله قدرته على جعل ساطوره يغني حينما طلب اقتلني بيديك سيدي الجنرال لكي لا أعطي أحداً لذّة قتلي من دون أدنى حقّ، لكنه أرسله يموت مع معاش جيّد وميدالية امتنان في تلك البؤرة للصوص المواشي حيث ولد، ولم يستطع منع دموعه عندما تخلّى الجنرال ساتورنو سانتوس عن كل حياء ليقول له

في دفق من النحيب أترى سيدي الجنرال هذه الحماقة، حتى الفحول الأشد سفاداً ينتهون بالتحول إلى كائنات بائسة. بحيث أن أحداً لم يكن يفهم أفضل من بندثيون ألفارادو الابتهاج الصبياني الذي كان يستردّ به السنين السود وعدم الإدراك الذي كان يدفعه إلى تبذير نقود السلطة كي يمتلك، شيخاً، ما كان يحتاج إليه صبيّاً، لكنها كانت تغتاظ من استغلال براءته المبكرة لبيعه سقط متاع الأمريكيين هذا الذي لم يكن رخيص الثمن ولا يقتضي الدهاء، كالطيور المزيّفة التي لم تجد أكثر من أربعة أشخاص لاقتنائها، لا بأس من أن تغتنم الفرصة، كانت تقول، لكن فكر في المستقبل، لا أريد أن أراك تتسوّل بقبّعة عند باب كنيسة إذا ما غداً أو بعد غد لا سمح الله طردت من هذا الكرسي الذي تجلس عليه، على الأقل لو كنت تجيد الغناء، أو كنت مطراناً أو بحاراً، لكنّك لست سوى جنرال، إذاً فأنت لا تجيد سوى إصدار الأوامر، اطمر النقود التي بقيت معك من الحكومة في موضع أمين، كانت تنصحه، حيث لا يتمكن أحد من الوصول إليها، حتى إذا ما توجّب عليك ذات يوم أن تهرب مثل هؤلاء الرؤساء المساكين الذين لا أوطان لهم والذين يجترّون النسيان وهم يتسولون وداعات السفن في بيت الصخور، انظر إلى نفسك في مرآتهم، كانت تقول له، غير أنه لم يكن يكترث وكان يكمّم قلقه بصيغة سحرية لا تقلقي يا أمّاه، هؤلاء القوم يحبونني. وكان على بندثيون ألفارادو أن تعيش سنوات لا بأس بها وهي تشتكي من عوزها، وتتخاصم مع الخادمات بسبب حسابات السوق وتمتنع عن أكل بعض وجبات الطعام كي تقتصد من دون أن يجرؤ أحد على إعلامها بأنها إحدى أغنى النساء على وجه الأرض، وأن ما يراكمه بفضل أعمال

الحكومة إنما كان مسجّلاً باسمها هي، وأنها لا تملك عدداً لا يحصى من الأراضي والأنعام فحسب، بل كل عربات الترام المحلية ومراكز البريد والبرق ومصلحة مياه الأمّة أيضاً، بحيث أن كل سفينة تمخر روافد الأمازون أو البحار الإقليمية كان يتوجب عليها أن تدفع لها ضريبة ظلّت تجهلها حتى موتها، كما جهلت طيلة سنوات أن ابنها لم يكن محروماً بالقدر الذي كانت تتصوّره عندما كان يصل إلى قصر الضاحية مذهولاً دهشاً بألعاب الشيخوخة، إذ بالإضافة إلى الضريبة الشخصية التي كان يجبيها على كل رأس من الماشية يذبح في البلاد، بالإضافة إلى مكافأة فضائله والهدايا ذات الشأن التي كان يرسلها إليه أنصاره، فقد رسم وأخذ يستغل منذ زمن لا بأس به طريقة ناجعة للحصول على النقود من اليانصيب. كان ذلك بالضبط بعد ميتته الزائفة، في أزمنة الضجيج، سيدي، التي لم تسمّ بذلك الاسم كما يعتقد الكثيرون بيننا بسبب هدير الأرض الباطني الذي فاجأنا في كل أرجاء الوطن ليلة استشهاد القديس هراكل والذي لم يتم توضيحه البتة بجلاء، وإنما بسبب الاضطراب المتواصل للأشغال المتعهّدة التي كانت أسسها تعلن بأنها أكبر منشآت في العالم والتي ظلت رغم ذلك غير مكتملة، في زمان هادئ حيث كان يجمع مجلس الوزراء ساعة القيلولة في قصر الضاحية، ويتمدد في أرجوحة نومه مروّحاً لنفسه بقبعته تحت أغصان شجر التمر الهندي الندية، وينصت وعيناه مغمضتان إلى الدكاترة ذوي الحديث الذهبي والشوارب المحوّة الذين كانوا يجلسون، حول أرجوحة النوم، وهم كابون من الحرارة في سترات «ردنغوت» من الجوخ وياقات «سلولويد» ليناقشوا الوزراء المدنيين المقيتين والمدعوين رغم ذلك لأنه كان يرى فائدة

في محاورتهم في شؤون الدولة وسط صخب الديكة التي تغازل الدجاجات في الفناء، والصفارة المتواصلة للزيزان والفونوغراف المصاب بالأرق وهو يزعق في الجوار مكرّراً سوزان، تعالي يا سوزان، ويسكتون فجأة، صمتاً، الجنرال نام، لكنه كان يخور من دون أن يفتح عينيه، ومن دون أن ينقطع عن الشخير، لم أنم أيها الأوغاد، تابعوا، فكانوا يتابعون، حتى اللحظة التي كان يخرج فيها مثل طائر «تنطل» متخبط في نسيج عنكبوت القيلولة ويعلن أنه في هذا الكيس من الحماقات ليس هناك سوى شريكي وزير الصحة على حقّ، سحقاً انتهى الإزعاج، وفعلاً ينتهي الإزعاج، وكان يثرثر مع معاونيه الخصوصيين ويأخذهم من زاوية إلى أخرى بينما هو يأكل، الصحن في يد والملعقة في الأخرى، قبل أن يصرفهم بكل برود على الدرج افعلوا مثلما شئتم فأنا القائد في نهاية الأمر، سحقاً إذاً، لقد أضاع نزق السؤال عمّا إذا كان محبوباً أم غير محبوب، وكان يقصّ أشرطة تدشين، ويظهر نفسه في الأماكن العامة من شعره إلى أخمص قدميه كاملاً، متحملاً مخاطر السلطة كما لم يفعل في أزمنة أهدأ، سحقاً إذاً، كان يلعب الدومينو مطولاً مع شريكي مدى الحياة الجنرال رودريغودي أغيلار وشريكي وزير الصحة، الوحيدَيْن اللذين يثقان به ليطلبا منه إطلاق سراح أحد السجناء أو العفو عن أحد المحكومين بالإعدام، الوحيدَيْن اللذين يتجرآن على أن يقترحا عليه استقبال ملكة جمال الفقراء في جلسة خصوصية، مخلوقة رائعة من ذلك المستنقع البائس الذي كنا نسميه حي معارك الكلاب إذ أنّ كل كلاب الحي كانت تتصارع فيه منذ سنوات من دون هدنة لحظات، بؤرة مشؤومة حيث لم تعد دوريات الحراسة الوطنية تدخل، ذلك أنها كانت تخرج منها

عـارية تماماً، وحيث يختلسون منك قطع السيّارة كما في وسائل الشعوذة، وحيث الحمير البائسة التائهة تدخل من شارع وتخرج من الطرف الآخر على هيئة كومة صغيرة من العظام في كيس، حيث يأكلون أطفال الأغنياء مشويين، سيدي الجنرال، ويبيعونهم في السوق على شكل نقانق، تصوروا هنالك ولدت وهنالك عاشت مانويلا سانشيز تعاستي هذه، وردة مزبلة كان جمالها الذي لا يصدّق يذهل الوطن بكامله سيدي الجنرال، وأحس أنه معنيّ بهذا البوح إلى حدّ أنه إذا كان كل ما تقوله حقيقة فإنني لن أكرمها بجلسة خصوصية فحسب بل سوف نرقص أيضاً أوّل فاس، سحقاً إذاً، فلتعلن الصحافة ذلك، أصدر أمره، الفقراء يهيمون بهذا النوع من الحماقات. ورغم ذلك، ففي المساء الذي أعقب الجلسة، وبينما كانا يلعبان الدومينو، أكّد الجنرال رودريغو دي أغيلار بنوع من المرارة أن ملكة الفقراء لم تكن تستحق أن يضيع الواحد وقته في مراقصتها، وإنها لم تكن تختلف عن سائر «المانويلات سانشيز» في الضواحي بفستان الحوريّة ذي دوائر الموسلين، وتاجها المذهب والمرصّع بجواهر البازار والوردة في يدها، تحت حراسة أمها اليقظة التي كانت تراقبها مثل تمثال من ذهب، حسناً، ولقد أعطاها كل ما كانت ترغب فيه على الإطلاق الكهرباء والماء الجاري من أجل حارتها، حارة معارك الكلاب تلك، ولكن أنذرك بأنها المرة الأخيرة التي أقبل فيها التماساً، تبّاً، لا أحد يعتمد عليّ للحديث مع الفقراء منذ اليوم، أعلن ذلك، ومن دون أن ينهي الأمر، صفق الباب واختفى، سمع دقات الساعة الثامنة النحاسية، فعاين البقرات في الإسطبلات، أخرج الرّوث، فتّش كامل البيت، وصحنه في يده، وهو يأكل فاصولياء مع

اللحم والأرز وقطعاً من الموز الأخضر، أحصى الحرس من بوابة الدخول حتى الغرف، كان عددهم كاملاً وكلهم في مراكزهم، أربعة عشر، رأى بقية حرسه يلعبون الدومينو في الباحة الأولى، رأى البرصى نائمين تحت أشجار الورد، والمشلولين على درجات السلم، عند الساعة التاسعة وضع على حافة إحدى النوافذ صحنه الذي أكل نصفه ثم وجد نفسه وهو يتقلّب في أجواء مخيّم محظياته الموحل واللواتي كن ينمن أحياناً كل ثلاث على سرير واحد مع أطفالهن المولودين قبيل الأوان، جثم على كدس له رائحة طبيخ الليلة وأبعد من هنا رأسين ومن هناك ست أرجل وثلاثة سواعد دون أن يتساءل إن كان سيعرف مَنْ كانت مَنْ، ولا حتى من هي المرأة التي مكّنته من المتعة دون أن تستيقظ، ودون أن تحلم به، ومن تلك التي همست وهي نائمة في سرير آخر افعل ذلك بهدوء سيدي الجنرال، إنّك تخيف الصبيان، عاد إلى غرفته، تفحّص غلاقات الثلاث وعشرين نافذة، أشعل الروْث على امتداد خمسة أمتار الروّاق وحتى الحجرات الخاصة، اشتم رائحة الدخان وعادت به الذاكرة إلى طفولة غامضة قد تكون طفولته، وكانت لا تنبثق من جديد إلا في تلك اللحظة ذاتها عندما يبدأ الدخان بالارتفاع، لكنه كان ينساها مباشرة، استدار قليلاً ليطفئ من الاتجاه المعاكس أضواء الحجرات الأخيرة حتى الروّاق وهو يغطي أقفاص الطيور النائمة التي كان يحصيها قبل أن يغطيها بستائر الكريطون، ثمانية وأربعون، جاب المنزل كلّه مرة أخرى والمصباح في يده، رأى نفسه أربعة عشر جنرالاً يسيرون مع مصباح مضاء في المرايا، الساعة العاشرة، لا جديد يذكر، عاد إلى غرف الحرس الرئاسي وأطفأ أنوارها، تصبحون على خير يا سادتي، فتش المكاتب العمومية في

الطبقة الأرضية ومداخل غرف الانتظار والمراحيض وخلف الستائر وتحت الطاولات، لم يكن هناك أحد، أخرج مجموعة المفاتيح التي كان قادراً على تمييزها واحداً واحداً باللمس، أغلق المكاتب، صعد إلى الطابق الأول لتفتيش الغرف غرفة غرفة وإقفال الأبواب، أخرج إناء العسل من مخبئه خلف إحدى اللوحات وتناول منه الملعقتيْن اللتيْن كان يتناولهما دائماً قبل النوم، فكّر في أمه النائمة في قصر الضاحية، بندثيون ألفارادو ناعسة في ساعة الوداع بين الصعتر البرّي والاترنج بيدها الفقيرة الدم، يد مربية الطيور، رسامة الصفاريات وهي تشبه أمّاً ميتة نائمة على جنب، تصبحين على خير، أماه، نامي جيداً، تصبح على خير يا بني أجابته أمه بندثيون ألفارادو وهي نائمة في قصر الضاحية، علق فوق باب حجرته مصباح اليد الذي لا يجب أن يتحرك من هناك ما دام نائماً، كان الأمر صارماً لا تطفئوه لأنه ذبالة الانطلاق نحو الكارثة، دقت الساعة الحادية عشرة، فتش البيت لمرّة أخيرة، في العتمة، تحسباً من إمكانية تسلّل أحدهم ظناً منه أنه نائم، وكان يترك وراءه سحابة الغبار الكوني من مهمازه الذهبي في الأسحار المتلاشية، دفقات النور الخضراء التي كانت المنارة تبثها وهي تدور مثل أجنحة مطحنة، ورأى بين بارقتين من النور أبرص تائهاً يمشي نائماً، اعترض طريقه، قاده نحو الظلّ دون أن يلمسه مضيئاً إياه بفانوس يقظته، ثم هجره عند أشجار الورد وأعاد إحصاء الحرس في العتمة، التحق بحجرته، فكان يرى وهو يمرّ أمام النوافذ بحراً مماثلاً في كل نافذة بحر الكاريبي في شهر أبريل، نظر إليه ثلاثاً وعشرين مرّة بلا توقّف، كان كعادته في نيسان شبيهاً بمستنقع مذهّب، استمع إلى دقات منتصف الليل، ومع آخر دقّة لناقوس

الكاتدرائية أحسّ بالتواء الصفير المكتوم المتأتي من آلام الفتق، ولم يعد ثمّة ضجيج على وجه الأرض، وحده كان كل الوطن، شدّ الرتاجات الثلاثة، المزاليج الثلاثة، دعامات الغرفة الثلاث، تبوّل جالساً على سطله الصحّي، قطرتيْن، أربع قطرات، سبع قطرات شاقة، ترك جسده يقع وجهاً على الأرض ونام فوراً دون أن يحلم، كانت الساعة الثالثة إلا ربعاً عندما استيقظ مبلّلاً بالعرق، يزعزعه اليقين بأن شخصاً ما نظر إليه عندما كان نائماً، شخص له القدرة على التسلّل دون لمس المزاليج، نادى، من هناك، لا أحد، أطبق عينيه، أحس من جديد أن شخصاً ما ينظر إليه، فتح عينيه كي يرى، مرتعباً، عندها رأى، يا للفوضى، لقد كانت مانويلا سانشيز تقطع الغرفة جيئة وذهاباً دون أن تفتح أيّ مزلاج أو رتاج، كانت تدخل وتخرج كما ترغب مخترقة كل الجدران، مانويلا سانشيز شقائي هذه في فستانها الموسلين، وجمرة وردتها في يدها ورائحة السوس الطبيعي في أنفاسها، قولي لي إن ذلك وهم، إنني أهذي، كان يقول، قولي لي بأنك لست أنت، قولي لي بأن دوار الموت هذا ليس تلاشي السوس من أنفاسك، لقد كانت هي فعلاً، كانت وردته، وكانت أنفاسها الدافئة تعطر الغرفة بأكملها مثلما رصيف مرجاني أبعد سطوة وأكثر قدماً من رئتي البحر، مانويلا سانشيز مصيبتي هذه التي لم يكن قدرها مرسوماً على باطن يدي، ولا في تفل قهوتي، كلا، ولا حتى في مياه موتي في جفنات العرافات، لا تلمسي هوائي؛ لا تلمسي نومي؛ لا تلمسي عتمة هذه الحجرة حيث لا امرأة دخلت قط ولا كان لها أن تدخل، أطفئي هذه الوردة، كان يتأوه جاثماً على أربع وهو يبحث عن مفتاح الكهرباء فلا يجد من الضوء سوى مانويلا سانشيز جنوني، سحقاً

إذاً، لماذا عليّ أن ألقاك من جديد إن لم تكوني قد أضعتني، خذي بيتي إن شئت، كلّ الوطن مع تنّينه، ولكن دعيني أضيء النور، آه يا عقرب ليالي، يا مانويلا سانشيز فتقي، يا ابنة القحبة، صرخ، ظناً منه أن النور سيحرره من السحر، أخرجوها، كان يصرخ، خلصوني منها، اقذفوا بها من أعلى قمم الصخور مع مرساة في عنقها حتى لا يتعذب أحد أبداً من وهج وردتها، بح صوته رعباً عبر الأروقة، كان يتخبط في روث العتمة الموحل، متسائلاً في ذهوله ترى ماذا يجري؟ أوشكت الساعة على الثامنة صباحاً والجميع في بيت الأنذال هذا، نائمون، استيقظوا أيها المخدوعون، كان يصرخ، أضيئت الأنوار، قرعت نوبة الصباح في الساعة الثالثة فأعادتها قلعة الميناء، ثكنة سان خيرونيمو، وثكنات البلاد، فكانت هناك فرقعة لأسلحة مجنونة وورود تتفتح رغم أن ساعتين تفصلانها عن هطول الندى، ومحظيات سائرات في نومهنّ كنّ ينفضن السجادات تحت النجوم، ويبحثن عن أقفاص الطيور النائمة ويستبدلن أزهار هذه الليلة البيضاء بأزهار عشية البارحة في الأصص، وكانت فرقة من البنائين ترفع حيطاناً استعجالية وتغيّر وجهة دوار الشمس بإلصاق شموس من ورق مذهب على زجاج النوافذ حتى لا يتم الانتباه إلى أن الليل لا يزال في السماء وأن الأحد ٢٥ لا يزال في البيت وأن (أبريل) لا يزال على البحر، وكان رهط من الكوائين الصينيين يلقون بآخر النائمين عن أسرّتهم كي يحملوا الأغطية، وعميان متنبّئون يعلنون عن الحب في أماكن لا حبّ فيها، وموظفون فاجرون يكتشفون دجاجات تبيض بيض يوم الاثنين في حين كان بيض البارحة لا يزال في جوارير المحفوظات، كانت هناك جموع مذهولة تتدافع وكلاب تتقاتل في مجلس

الوزراء الملتئم على جناح السرعة في حين كان هو يفتح طريقاً أضاءه الصباح المفاجئ ما بين المتملقين بلا حياء الذين كانوا يعلنونه بالج الفجر، آمر الزمن ومؤتمن الضياء، حتى اللحظة التي تجرأ فيها ضابط من القيادة العليا على إيقافه في الرواق وانتصب بالتحيّة ومعه النبأ سيدي الجنرال كانت الساعة لم تتجاوز بعد الثانية وخمس دقائق، ثم صوت آخر، في الساعة الثالثة وخمس دقائق صباحاً سيدي الجنرال، غير أنه سدّد له صفعة بقفا يد متوحشة وعوى بملء صوته الهلع حتى تتمكن كل الأرض من سماعه، إنها الساعة الثامنة، يا للفوضى، الساعة الثامنة، أقول لك، إنه أمر من الرب. سألته بندثيون ألفارادو عندما رأته يدخل قصر الضاحية من أين أنت قادم بهذه السحنة وكأنّما لسعتك رتيلاء تارنتيّة سامة، ولماذا تحتفظ بيدك على قلبك، قالت له غير أنّه انهار فوق أريكة السوحر من دون أن يجيبها، حوّل يده عن مكانها، ونسيها من جديد، عندما صوّبت أمه فرشاة الصفّاريات إليه وسألته متحيّرة إن كان يظن نفسه قلب يسوع حقّاً بهاتين العينين السقيمتين وهذه اليد على صدره، فأخفاها مرتبكاً، سحقاً أمّاه، صفق الباب وذهب أو أنّه بالأحرى أخذ يلف ضمن دائرة في البيت ويداه في جيبه حتى لا تتمكنا تلقائياً من الانتقال إلى الموضع الذي لا يجب أن تستقرا فيه، تأمّل المطر من النافذة، رأى الماء ينساب على نجوم أغلفة البسكوت وأقمار الورق الفضّي التي تم إلصاقها على الزجاج للإيهام بأنها الثامنة مساء في الساعة الثالثة بعد الظهر، رأى الحرس مرتجفين برداً في الباحة، رأى البحر كئيباً، مطر مانويلا سانشيز في مدينتك وهي خالية منها، الصالون الرهيب خالياً، الكراسي مقلوبة على الطاولات، الوحدة

المتفاقمة مع بداية العتمة أثر يوم سبت آخر زائل، ليلة أخرى من دونها، سحقاً إذاً، ليتهم يقدرون على تخليصي من هذا الهوس الذي هو أشد ما يعذبني، تنهّد، خجل من حالته، استعرض كلّ مواضع جسده حيث يمكن وضع يده التائهة باستثناء قلبه وانتهى بأن وضعها على موضع الفتق الذي سكّنته الأمطار، إنه هو نفسه وله الشكل نفسه، الثقل نفسه، وحدّة الألم نفسها، كان ذلك أفظع ممّا لو كان قلبه مستأصلاً ومستقراً على كفّ يده، وأدرك عندئذٍ ما قاله له أناس كثيرون من عصور أخرى إن القلب هو خصيتنا الثالثة سيدي الجنرال، سحقاً إذاً، ابتعد عن النافذة، وأخذ يقطع قاعة الاجتماعات جيئة وذهاباً مع غمّ لا يزول لرئيس دولة ليس يموت وقد انغرزت حسكة سمكة في روحه، وجد نفسه في قاعة مجلس الوزراء وهو يستمع كعادته من دون أن يفهم، من دون أن ينصت، وجد نفسه يتلقّى تقريراً مملاً حول الوضع الضريبي، فجأة حدث شيء ما، قوطع وزير المالية، أما الآخرون فكانوا ينظرون إليه عبر شقوق قوقعة صدّعها الألم، رأى نفسه وحيداً أعزل عند آخر طاولة خشب الجوز وهو يرتجف لكونه فوجئ في وضح النهار ويده على صدره في حالة يرثى لها، هي حالة رئيس مدى الحياة، حياته احترقت في الجمر الجليدي المنبثق من عيني الصائغ، عيني شريكي وزير الصحّة، وهما عينان شديدتا التدقيق بدتا تتفحصانه داخلياً في حين كان شريكي يدير سلسلة ساعة الجيب الذهبيّة، انتبه، قال أحدهم، ربما كان هجوماً، أما هو فكان قد وضع يده، يد حورية البحر المتيبسة من الحنق، على طاولة خشب الجوز، استرجع نضارة وجهه، وقذف عبر الكلمات وابلاً قاتلاً من السطوة، تمنيتم لو كان ذلك هجوماً، أيها الأدنياء، فلنواصل، فواصلوا،

لكنهم كانوا يتحدثون من دون أن ينصتوا لبعضهم البعض اعتقاداً منهم أن وراء هذا الغيظ أمراً خطيراً كان يعذبه بلا ريب، تهامسوا بذلك، سرت الغمغمة، أخذوا يشيرون إليه بالأصابع، انظروا ماذا أصابه حتى يمسك بقلبه على تلك الطريقة، تفتّقت ثيابه، كانوا يتهامسون، وانتشرت الشائعة بأنّه استدعى وزير الصحة على جناح السرعة وأن هذا الأخير وجده وذراعه اليمنى مستقرة مثل قائمة خروف على طاولة الجوز وهو يصرخ آمراً ابتر لي هذه يا شريكي، شاعراً بالخزي من حالته، حالة الرئيس المجهش بالبكاء، إلا أن الوزير أجابه سيدي الجنرال هذا الأمر لن أنفّذه حتى وإن أعدمت رمياً بالرصاص، قال له، إنها مسألة عدل سيدي الجنرال، قيمتي أقل بكثير من ذراعك. كانت هذه الرواية وروايات أخرى غيرها حول حالته تنتشر كل يوم مع تأكيدات أكثر في حين كان هو يكيل الحليب في الإسطبل من أجل الثكنات مشاهداً ثلاثاء رماد مانويلا سانشيز يرتفع في السماء، ويطرد البرصى عن أشجار الورود حتى لا يفسدوا ورود وردتك، مانويلا، ويبحث عن الزوايا المخبأة المقفرة كي يغني خفية أول فالس للملكة، حتى لا تنسيني، كان يغني، حتى تحسّي أنك تموتين لو نسيتني، كان يغنّي، وكان يغرق في حجرات محظياته محاولاً إيجاد بلسم لعذابته، ولأول مرة في حياته الطويلة، حياة العاشق العابر، بدت غرائزه منطلقة في جموحها، كان يتأخر في نزواته، ويستثير آهات النساء الأكثر تقتيراً فيضحكن مذهولات تحت العتمة، ألا تخجل سيدي الجنرال، وأنت في هذا العمر، أما هو فكان يعرف جيّداً أن إرادة المثابرة لديه ليست سوى وهم يتشبث به لقتل الوقت، وأن كل خطوة في وحدته، كل صعوبة تعترض تنفسه، إنما كانت

تقرّبه بلا جدال من قيظ الساعة الثانية ما بعد ظهر يومٍ لم يكن منه مفر حين ذهب يتوسّل لوجه الله محبّة مانويلا سانشيز في قصر المزابل ومملكتك المتوحشة في حيّ معارك الكلاب، ذهب إلى هناك في ثيابه المدنية، من دون مرافقين، في سيارة تاكسي كانت تفرّ وهي تحدث ضجة متواصلة عبر بخار البنزين في المدينة المنهكة المتخبطة في سبات القيلولة، وتتلافى، متعرّجة، قرقعة السلع الآسيوية، رأى البحر الواسع بحر مانويلا سانشيز تعاستي مع بجعة وحيدة في الأفق، رأى عربات الترامواي المخلوعة التي تصل حتى بيتك وأمر باستبدالها بعربات صفراء ذات زجاج ملوّن مع عرش مخملي لمانويلا سانشيز، رأى شواطئ أيام آحادك المقفرة على ساحل البحر وأمر بإنشاء حجرات خاصة لنزع الثياب وارتدائها، وبرفع علم ذي ألوان مختلفة باختلاف ميول الزمن، وأسلاك شائكة حول شاطئ سباحة مخصص لمانويلا سانشيز، رأى فيلاّت الأربع عشرة عائلة التي اغتنت بفضل عطاياه، مع شرفاتها المرمرية ومروجها الحالمة، رأى فيلاً أكبر مساحة مع نافورات ماء مدوّمة وشرفات زجاجية حيث أريد أن أراك تعيشين من أجلي فقط، فتم انتزاع ملكيتها بمحاصرتها والتصرف بمصير ساكنيها في حين كان هو يحلم مفتّح العينين على المقعد الخلفي للسيارة ذات الألواح المرتجّة، حتى اللحظة التي انقطع فيها النسيم البحري وتوارت المدينة، وتسرّب عبر فجوات البوابات الصخب الشيطاني من حيّ معارك الكلاب وهناك رأى نفسه فلم يصدّق وهو يفكّر، أمّاه بندثيون ألفارادو انظري أين أنا من دونك، ساعديني، ولكن لا أحد تعرّف في الضوضاء على العينين المتوحشتين، الشفتين الواهنتين، اليد المرتخية المستقرّة على القلب، صوت والد الجدّ المتناوم

الذي كان وهو في بدلته الكتانية البيضاء، وتحت قبعة رئيس عمّال، يميل عبر الزجاج المحطّم كي يعلم أين تسكن مانويلا سانشيز حياتي، ملكة البؤساء، سيدتي، تلك التي في يدها وردة، متسائلاً بهلع كيف يمكنك أن تقطني ما بين هؤلاء الوحوش ذوي النظرات الشيطانية، والأنياب المعوجة المدمّاة في رهط من العواء الهارب والأذناب المحشورة بين القوائم، مذبحة كلاب تمزّق بعضها بالأنياب وسط الوحل، أين تختبئ رائحة السوس المتصاعدة من أنفاسك في هذا الصخب الدائم حيث ابنة القحبة هي أنت يا عذاب قلبي مع هؤلاء السكيرين المطرودين بضربات الجزمات على أقفيتهم من مسالخ المقاهي الرديئة، أين ذهبت لتضيعي في هذه النوبة التي لا نهاية لها من «المارانغوانغو» و«البوراندانغا» شراب المحبّة لاحتجاز الإنسان، ومن «الغوردولوبو[٧]» و«الماريجوانا» والنقانق الفظيعة المثقوبة مثل العضو والسانتافو الأسود للمومس التي ستفتح حولها فيما بعد مناقصة ضمن الهذيان المتواصل في الفردوس الأسطوري لآدم الأسود[٨]، و«خوانسيتو تروكوباي[٩]»، يا للفوضى، أين هو بيتك في هذا الخليط من الجدران المثلّمة ذات اللون الأصفر اليقطيني والدّعائم البنفسجيّة والنوافذ الخضراء بلون أنثى الببغاء والحواجز الزرقاء كصبغ الغسيل الأزرق والأعمدة الوردية مثل الوردة التي تحملها يدك، كم تكون الساعة في اعتقادك إذا كان هؤلاء المتضاربون على أقفيتهم يجهلون أوامري التي تريد أن تكون الساعة الآن الثالثة بعد الظهر وليس الثامنة مساء من مساء البارحة كما تبدو الحال في هذا الجحيم، أي واحدة أنت من بين هؤلاء النسوة اللواتي يهززن برؤوسهنّ في الحجرات الخالية وهن يتروحن بتنوراتهنّ، مفرجات ما بين سيقانهن على المقاعد

متنسمات بين أوراكهن من الحرارة بينما كان هو يسأل عبر فتحة البوابة أين تسكن مانويلا سانشيز غيظي، تلك التي لها فستان من زبد متلألئ بالألماس، وإكليل من الذهب الممتلئ وهبه لها في الذكرى الأولى لتتويجها، أعرفها، سيدي، قال أحدهم في الضجيج، وهي امرأة بدينة عجزاء تظنّ نفسها أنثى غوريلا، إنها تسكن هنا، سيدي، هنا، في بيت مثل سائر البيوت، فاقع وفق المراد مع آثار أقدام حديثة لأحد المارة وقد زلت به قدمه فوق بقايا براز كلب عند فسيفساء حاجز الآجر، بيت مسكين لفقيرة مختلفة تماماً عن مانويلا سانشيز وهي جالسة على الكرسي المنجّد الخاص بالحكام، يصعب التصديق بأنه بيتها، إلا أنه كان بيتها حقاً، أمّاه بندثيون ألفارادو هبيني القدرة على الدخول، أماه، إذ أنه بيتها حقاً، لقد جاب الحيّ عشر مرات لكي يستعيد أنفاسه، لقد دق على الباب ثلاث دقات بدت وكأنها على مفاصله، انتظر في ظل تعريشة الممشى الملتهب من دون أن يعرف إن كان الهواء العفن الذي يتنسّمه مفسداً بارتداد الشمس أم بالتلهّف، انتظر من دون أن يفكّر في حالته حتى اللحظة التي أدخلته فيها والدة مانويلا سانشيز إلى الفيء الندي حيث بقايا رائحة سمك مقلي في القاعة الكبيرة العارية تقريباً داخل المنزل الأكثر اتساعاً من الداخل منه من الخارج، تفحّص إطار حرمانه وهو جالس على منضدة جلديّة في حين كانت والدة مانويلا سانشيز توقظ هذه الأخيرة من قيلولتها، رأى الحيطان المتصدّعة مع آثار سيلان لأمطار قديمة، أريكة منقّبة، منضدتين أخريين بسطح جلدي، بيانو بلا أوتار في إحدى الزوايا، فقط، سحقاً إذاً، كل هذا العذاب من أجل امرأة غبيّة، قال متنهّداً عندما عادت والدة مانويلا سانشيز مع سلّة

أشغال وجلست كي تشتغل الدانتيلا، وفي الأثناء كانت مانويلا سانشيز ترتدي ثيابها وترتّب شعرها وتنتعل أجمل أحذيتها مهيئة استقبالاً لائقاً بالشيخ المفاجئ الذي كان يتساءل مرتبكاً أين أنت يا مانويلا سانشيز شقائي إذ أنني جئت أبحث عنك ولست أجدك في بيت الشحاذين هذا، أين أنت يا رائحة السوس في هذه العفونة لطبق الطعام البارد، أين هي وردتك، أين هو حبّك، أخرجيني من زنزانة الشكوك المدنّسة، كان يتنهّد، عندما رآها تظهر وسط إطار الباب كما صورة في الحلم معكوسة في مرآة حلم آخر بفستانها من قماش الايتمين الذي تكلّف الياردة الواحدة منه أربعة فلوس، وشعرها المرفوع بمشط على عجل، وحذائها المتشقّق، ورغم ذلك كانت أجمل امرأة متكبّرة على وجه الأرض بوردتها المضاءة في يدها، كانت رؤية فاتنة إلى حدّ أنه لم يكد يتمكن من استعادة رشده كي ينحني أمامها عندما حيّته برأس شامخ ليحفظ الله سموكم، جلست أمامه على الأريكة، هناك حيث لا يمكن أن يطالها فوحان رائحة الشيخوخة الكريهة، عندئذ تجرأتُ على النظر إليه في وجهه للمرة الأولى وأنا أدير جمرة وردتي بين إصبعيَّ حتى لا يلاحظ هلعي، تفحّصت من دون رحمة شفتيه الشبيهتين بشفتي الوطواط، وعينيه الصامتتين اللتين بدتا كأنهما تلمحانني من قاع مستنقع، وجلده الأملط كمدر من تراب مطروقة بزيت الحقد، أكثر امتداداً وسماكة لدى يده اليمنى المنهكة على ركبته والتي كانت تحمل الخاتم مع ختم الرئاسة، وبدلته الكتانية الضيّقة كما لو كانت خالية، وزوجيْ حذائه الشبيهين بحذاء الجثة، وفكره اللامرئي، سلطته الخفيّة، الشيخ الأكثر شيخوخة في العالم، الأكثر رهبة، الأكثر مقتاً والأقل شكوى في الوطن متروّحاً بقبّعة رئيس عمّال وهو

يتأملني صامتاً من ضفّته الأخرى، يا إلهي يا له من رجل مغتمّ، فكرت مذعورة، سألت ببرود أي خدمة لسموكم، فأجاب بنبرة ارتسامية جئت فقط أسألك معروفاً يا جلالة الملكة، وهو أن تستقبليني. وزارها بكل إخلاص يومياً لمدّة أشهر خلال ساعات اشتداد القيظ التي كان يزور فيها أمّه عادة، حتى يظنّ رجال الأمن أنّه في قصر الضاحية، وكان هو الوحيد الذي يجهل ما كان يعلمه الجميع بما في ذلك أنّ أفضل قنّاصة الجنرال رودريغو دي أغيلار، كانوا يحمونه متربصين على الشرفات والسطوح، وكانوا يعرقلون السير ويخلون بأخامص أسلحتهم الشوارع التي سيمرّ منها، ويمنعون المشي فيها حتى تبدو مقفرة من الساعة الثانية إلى الخامسة مع الأمر بقتل أي شخص يحاول الظهور من إحدى الشرفات، إلا أن الأقل تطفلاً كانوا يتدبرون أمرهم لرصد المرور الخاطف لسيارة الليموزين الرئاسية المطلية على هيئة تاكسي وفيها الشيخ القائد المتنكّر في زي مدني بريء من الكتّان، كانوا يرون عليه شحوب اليتامى ومحيّاه المخدّد بفعل رؤيته لشروق أيام كثيرة ومن أثر البكاء خفية، هذا المحيا الذي أصبح الآن غير مكترث بالأثر الذي تحدثه يده على صدره، كانوا يرون الحيوان الصموت السابق لعهد الطوفان مخلّفاً وراءه سحابة من الأوهام انظروا إليه قلبه لم يعد يطيق هواء الشوارع الممنوعة المتيبس من الحرّ، وسرت ثرثرة واسعة وقوية حول أمراضه الغريبة بحيث تم التوصّل إلى حقيقة كونه لم يكن في بيت أمّه وإنما في الملجأ السرّي الأمين لـ مانويلا سانشيز تحت رقابة الأم الصارمة التي كانت تخيط من دون تنفّسٍ، ذلك أنه كان يشتري لها، هي بالذات، الماكنات البارعة التي كانت تحزن بندثيون ألفارادو حزناً شديداً، وكان يحاول جذبها بأعاجيب

الإبر الممغنطة، وعواصف ثلج يناير المحاصر بضاغطات الورق الصوانية، وبأدوات الفلكيين والصيادلة، وبطابعات الوشم وآلات ضغط السوائل وتوقيت الموسيقى و«الجيرسكوبات» التي يواصل شراءها ممّن يرغب في بيعها له رغم رأي أمه ورغم بخله الشديد، وذلك رغبة منه في اللعب بها قرب مانويلا سانشيز، فكان يلصق بأذنها الصدفة الوطنيّة التي لا تحتوي على ضجيج البحر وإنما على «المارشات» العسكرية التي تخدم نظامه، ويدني شعلة عود الكبريت من ميزان الحرارة حتى تري ما أفكر به في أعماقي وهو يعلو وينزل، يتأمل مانويلا سانشيز من دون أن يطلب منها شيئاً، من دون أن يعبر لها عن نواياه، غير أنه يغدق عليها بهداياه الجنونية في صمت محاولاً أن يقول لها بواسطة تلك الهدايا ما لم يتجرأ على قوله، وهو الذي لم يتعوّد على إظهار رغباته الأكثر حميمية إلا عبر الرموز المرئية لسطوته اللامحدودة، كما في ذكرى ميلاد مانويلا سانشيز حين طلب منها أن تفتح النافذة، فكان أن فعلت ذلك، ثم مكثت متسمّرة من الرعب عندما شاهدت كيف حوّلوا حارتي الفقيرة، حارة معارك الكلاب، شاهدت بيوت الخشب الأبيض والكلل الناموسيّة على شبابيكها والأزهار في شرفاتها، مع مروج زرقاء مزودة بنافورات مياه مدوّمة وطواويس وروائح مبيدات باردة، نسخة دنيئة طبق الأصل لمقر إقامة ضباط الاحتلال تمّ استنساخها من دون ضجّة تحت جنح الظلام، لقد خنقت الكلاب، وتم طرد الساكنين القدامى من بيوتهم إذ ليس من حقهم أن يكونوا جيراناً للملكة وأرسلوا ليتعفّنوا في مزبلة أخرى، وهكذا تمّ بناء حي مانويلا سانشيز الجديد بعد ليال سريّة عديدة حتى تري من نافذتك يوم عيدك، إنني أهبك إياه، يا ملكتي، كي تتمتّعي بسنوات

طويلة من السعادة، ولكي نرى إن كانت أبّهة السلطة هذه ستنجح في تغيير لباقتك العنيدة، لا تقترب، أناشد سموك، إن أمي تراقبنا إنها تمسك بزمام عفافي، وكان هو يختنق في رغباته، ويتآكل في غيظه ويبتلع في جرعات صغيرة، عصير «الغانابانا» المنعش الذي كانت تحضره له لتهدئة العطش، فيتحمّل وخز الثلج في صدغه كي لا تكتشفا عيوب الشيخوخة، لكي لا تحبّيني عن شفقة، بعد أن استنفد كل الحيل لكي يكون محبوباً عن حب، كانت تتركه وحيداً عندما أكون معك بحيث لم أعد قادراً على البقاء هنا، وأنا أموت رغبة في ملامستها أو حتّى ملامسة أنفاسها قبل أن يطير كبير الملائكة في البيت بحجمه القريب من حجم الإنسان ويدق ساعة موتي، فكان يشرب جرعة أخيرة في زيارته وهو يرتب الألعاب في علبها الأصلية خوفاً من أن تقرضها لك سوسة الخشب البحريّة، فقط دقيقة واحدة، يا ملكتي، وكان ينهض حتى الغد، حياة بكاملها، يا لها من كلبة، لم تُبْقِ له سوى لحظة لكي يلقي بنظرة على الفتاة المتعذّر لمسها والتي ظلت بلا حراك لدى مرور الملاك ووردتها الميتة على صدرها بينما هو يخرج، متسلّلاً بين الظلال الأولى محاولاً أن يخفي خجلاً كان الجميع في الشارع يتحدّثون عنه وكانت تنشره أغنية مهملة معروفة من قبل في البلاد بأسرها من دون أن يعرفها محركها الأول، وحتى الببغاوات كانت تنشدها في الباحات، تنحّيْن أيتها النساء الطيبات ها هو ذا الجنرال يده على قلبه وهو يبكي بغزارة، انظرن إليه عاجزاً ولكنه بسلطته، يحكم نائماً، وفوق ذلك جرحه لا يندمل، هذه اللازمة حفظتها الببغاوات البريّة نقلاً عن الببغارات السّجينة، وحفظتها إناث الببغاء وطيور القيق، ثم نقلتها الأسراب إلى ما وراء حدود مملكة

سأمه الشاسعة، وتحت كل سماوات الوطن كان يمكن مع حلول المساء سماع هذا الصوت الجماعي للجماعات الهاربة التي كانت تغنّي هو ذا جنرال حبّي الذي يخرج من فمه الخرا ويصدر القوانين من المؤخرة، أغنية لا نهاية لها، كان كل واحد، بما في ذلك الببغاوات، يضيف إليها مقاطع للسخرية من رجال الأمن الذين كانوا يحاولون إلقاء القبض عليها، وكان الجنود المستنفرون يسيرون في دوريات، ويقتلعون الألواح من باحات المنازل ويطلقون النار من بنادقهم على الببغاوات المخرّبة وهي فوق مجاثمها، ويرمون بكميات من إناث الببغاء الحية للكلاب، ويعلنون حالة الحصار محاولين استئصال الأغنية اللّدودة، حتى لا يكتشف أحدٌ ما يعرفه كل الناس عن كونه كان يتسلل مثل الهارب تحت جناح المساء عبر أبواب الخدمات الرئاسية، فيخترق المطابخ ويتوارى في دخان روث الحجرات الخاصة حتى الساعة الرابعة من صبيحة الغد، يا ملكتي، حتى كل الأيام في الساعة نفسها عندما يصل إلى بيت مانويلا سانشيز وهو محمل بالهدايا الغريبة إلى الحد الذي توجّب معه مصادرة البيوت المجاورة وهدم الحيطان المشتركة للتمكن من إيداعها، والقاعة الكبيرة نفسها تحولّت إلى مرآب شاسع ومعتم يضمّ عدداً لا يحصى من الساعات العائدة إلى كل العصور، فونوغرافات من شتّى الأنواع ابتداء من الغراموفون ذي الأسطوانات حتى تلك المزوّدة بسجاف ذي مرآة، عدد عديد من آلات الخياطة ذات المقبض أو الدواسة أو المحرك، كانت هناك غرف بكاملها تفيض مقاييس «غلفانية»، ومجموعات عقاقير آسيوية، ومخابر مداواة طبيعية وتربية بدنية، وأدوات للتنجيم ولضبط اللغة وللعلوم الطبيعية، وعالم كامل من الدّمى مع محركات خفيّة تجعلها تقلد

الإنسان، غرف موصدة حيث لم يكن أحد ليدخل ولو للتنظيف إذ أن كل شيء ظل على حالته كما تم وضعه لدى وصوله، ولم يكن أحدٌ يرغب في الحديث حول ذلك، وخاصة مانويلا سانشيز التي لم تعد ترغب في معرفة أي شيء عن الحياة منذ ذلك السبت الأسود يوم تم تنصيبي ملكة على بؤسي، لقد انتهى العالم بالنسبة لي ذلك المساء، مات مريدوها القدامى واحداً بعد الآخر وهَناً أو بأمراض وهمية، واختفت صديقاتها من دون أن يتركن أثراً، أما هي فقد نُقلت مع بيتها إلى حي يقطنه أناس مجهولون، فظلت هناك وحيدة، مراقبة في أبسط نواياها، سجينة في شرك القدر الذي لم تكن فيه قادرة على قول لا ولا حتى على قول نعم لهذا المريد البغيض الذي كان يحاصرها بحبّه، حبّ الشيخ الذي لا يستحق سوى مستشفى مجانين، والذي كان يتأملها بنوع من الذهول التوقيري متروّحاً بقبّعته البيضاء، مبلّلاً بالعرق، بعيداً عن نفسه ذاتها إلى حدّ أنها تساءلت أيراني حقّاً أم أن ذلك ليس سوى رؤية الهلع، لقد رأته يترنح في وضح النهار، لقد رأته يمضغ عصير الفواكه، لقد رأته يترنّح نائماً والكأس في يده وهو على أريكة السوحر في ساعة كان فيها أزيز الزيزان النحاسي يثقل كثافة الظلال في القاعة، رأته يشخر، آ... آ... سموكم، تقول له، فيستيقظ مذعوراً مهمهماً كلا كلا، يا ملكتي، لم أكن نائماً، كنت مطبق الجفنين فقط، من دون أن ينتبه إلى أنها سحبت منه كأسه حتى لا يقع أثناء نومه، لقد ألهته بحيل بارعة حتى ذلك المساء العجيب عندما أقبل مختنقاً تحت تأثير النبأ اليوم جئتك بأجمل هدية في الكون، أعجوبة سماوية ستمرّ هذه الليلة في الساعة الحادية عشرة وستّ دقائق حتى تشاهديها، يا ملكتي، فقط لكي تشاهديها،

وكان الأمر يتعلق بالنجم المذنّب. كان في ذلك أحد أكبر تواريخ خيبتنا، إذ كانت هناك منذ زمن طويل شائعة من بين شائعات أخرى عديدة، تقول بأن توقيت حياته لم يعد خاضعاً لقوانين زمن البشر وإنما لدورات النجم المذنّب، وإنه ولد ليشاهده مرّة واحدة لا مرتين رغم تنبؤات متملقيه المتعجرفة لذلك انتظرنا كما ينتظر المرء تاريخ مولده تلك الليلة القرنية من ليالي (نوفمبر) حيث تم تحضير موسيقى الحبور، أجراس الفرح، مفرقعات الأعياد التي لأول مرّة طيلة قرن لن تتفرقع لتمجيد أمجاده وإنما لانتظار الإحدى عشرة دقّة معدنية التي من شأنها أن تدل على خاتمة حياته، الاحتفال بحدث سماوي كان ينتظره على شرفة بيت مانويلا سانشيز، جالساً بينها وبين أمها، متنفّساً بقوّة حتى لا يتم الانتباه إلى اضطراب قلبه تحت سماء مرتعدة من الشؤم، شافطاً لأول مرة أنفاس مانويلا سانشيز الليلية، كثافة تقلباتها، وهواءها الطلق، اكتشف في الأفق طبول اللعنة التي كانت تتقدم للقاء المصيبة، سمع انتحابات نائية، ضجيج الرواسب البركانية للحشود التي كانت تخرّ من الرعب أمام مخلوق غريب عن سلطته وقد تجاوز، وعليه أن يتجاوز أيضاً، سنيّ عمره، أحسّ بثقل الزمن، تألم لحظة من بؤس أن يكون فانياً، عندئذ رآه، إنه هو، قال، وكان هو فعلاً، إذ كان يعرف، لقد رآه لدى مروره نحو الطرف الآخر من الكون، هو ذاته، يا ملكتي، أكثر قدماً من العالم، ميدوزا النور الأليمة في عظمة السماء التي ترتفع في كل شبر من مدارها مليون سنة نحو مصدرها، سمعوا صليل أسجاف الورق القصديري، شاهدوا وجهه المتلف، عيونه المغمورة بالدموع، علامات السمّ المتجمّد في جمّته المذنّبة المشعثة برياح الفضاء والتي كانت تترك على

العالم سحابة الغبار المشع ببقايا فلكيّة وبأكثر من فجر تأخّر بسبب أقمار من القطران والرماد المتأتي من فوهات المحيطات السابقة لمنابت الزمن الأرضي، انظري إليه، يا ملكتي، همهم، انظري إليه جيداً، إذ أننا لن نراه مرّة أخرى قبل قرن، رسمت إشارة الصليب مرتاعة، وبدت أكثر جمالاً من أي وقت تحت ألق فوسفور النجم المذنّب، ورأسها مثلّج بذلك الرذاذ النّاعم من الأنقاض النجمية والرسابة السماوية، عندئذ حصل الحدث التاريخي، أمّاه بندثيون ألفارادو، عندئذ مدّت مانويلا سانشيز -وقد رأت هاوية الخلود في السماء وحاولت التشبث بالحياة- مدّت يدها في الفراغ فلم تجد من مرتكز، سوى اليد غير المرغوب فيها والتي تحمل الخاتم الرئاسي، اليد الكاسرة، الساخنة، الناعمة والمطبوخة بنار بطيئة في رماد السلطة الساخن. كانت هناك قلّة قليلة من القوم من شأنها أن تتأثر بالمرور التوراتي لميدوزا الصفاء التي أفزعت أيائل السماء وبخّرت الوطن بغبار مشعّ من الأنقاض النجميّة، ذلك أن أكثرنا جحوداً كان يترصّد هذا الموت الضخم الذي كان من شأنه أن يحطّم المبادئ المسيحية ويقيم أصول الوصية الثالثة، انتظرنا سدى حتى بداية الصباح، ثم عدنا إلى بيوتنا وقد أرهقنا الانتظار أكثر مما أرهقنا عدم النوم في شوارع نهاية الاحتفال حيث كانت نساء الفجر يكنسن رواسب نفايات النجم المذنب السماوية، وحتى ذلك الوقت لم نسلّم بأنه لم يحدث أي شيء، بالعكس، لقد سلّمنا بأننا كنا ضحايا خدعة تاريخية جديدة، ذلك أن الصحف الرسمية أعلنت بأن مرور النجم المذنّب كان نصراً للنظام على قوى الشرّ، ولقد استغلّت الفرصة لتكذيب الشائعات حول الأمراض الغريبة للرجل الحاكم بتمجيد الإثباتات التي لا نظير لها على حيويته،

فتمّ نشر تبليغ احتفالي عبّر فيه عن قراري السامي الفريد بأن أكون في منصبي وفي خدمة الوطن عندما يعود النجم المذنب ليمر من جديد، وعلى العكس من ذلك فقد استمع إلى الموسيقى وإلى السهام الناريّة باعتبارها عناصر دخيلة على نظامه، واستمع بلا تأثر إلى هتافات الحشد المتجمّع في ساحة الأسلحة مع رايات كبيرة المجد الأبدي لوليّ نعمة الوطن الذي ينبغي أن يعيش كي يشهد، كان يهزأ كل الهزء بمصاعب الحكومة ويعهد بسلطاته إلى موظّفين من الدرجة الثالثة، ظلت ذكرى يد الجمر، يد مانويلا سانشيز في يده تعذبه، فكان يحلم بأن يعيش تلك اللحظة من السعادة حتى ولو توجّب على الطبيعة أن تتخلّى عن قوانينها وعلى الكون أن يخرب، كانت رغبته في ذلك قوية بحيث انتهى إلى أن توسل إلى فلكييه أن يخترعوا له نجماً مذنّباً من أسهم ناريّة، نيزكاً، تنّيناً من شرر، وباختصار جهازاً فلكياً مرعباً إلى حدّ كفيل بإحداث دوار من الخلود لدى امرأة جميلة، إلا أن الشيء الوحيد الذي تمكّنوا من بلوغه بعد حساباتهم كان كسوفاً كاملاً للشمس يوم الأربعاء من الأسبوع التالي في الساعة الرابعة بعد الظهر سيدي الجنرال، فقبل بذلك، موافق، وكانت ليلة حقيقية في وضح النهار بحيث لمعت النجوم، وذبلت الزهور، وقفز الدجاج إلى مجاثمه، أما الحيوانات ذات الغرائز النذيرة الفائقة فقد ظلت مأخوذة، في حين كان هو يشفط نَفَس مانويلا سانشيز الغسقي الذي كان يتحول إلى نفس ليليّ كلّما ذوت الوردة في يدها المهتوكة بالظلال، انظري، يا ملكتي، قال لها، إنه كسوفك الخاص، إلا أن مانويلا سانشيز لم تجب، لم تلمس يده، لم تكن حتى تتنفّس، كانت تبدو غير حقيقية إلى حدّ أنه لم يقدر على مقاومة الرغبة، ومدّ يده

في العتمة ليلمس يدها، لكنه لم يجدها، بحث عنها بأطراف أصابعه في الموضع الذي ارتفعت منه رائحتها، لكنه لم يجدها أيضاً، واصل البحث عنها بيديه الاثنتين في البيت الشاسع، سابحاً بعينيه المفتوحتين، عيني السائر في نومه عبر العتمات، متسائلاً بألم أين أنت يا مانويلا سانشيز بؤسي أبحث عنك ولا أجدك في ليلة كسوفك التعيسة، أين هي يدك القاسية، أين هي وردتك، كان يسبح مثل غوّاص تائه في مستنقع مياه غير مرئية مع غرف يطفو فيها كركند المقاييس الغلفانية ما قبل التاريخي، سرطان الساعات الموسيقية، سرطان أنوالك الوهمية، وبالمقابل لم يكن ليجد رائحة سوس أنفاسك، وكلّما تجدّدت ظلال هذه الليلة الزائلة كان نور الحقيقة يضيء في روحه، أحس أنه أكثر شيخوخة من الله في غبش الساعة السادسة من ذلك الفجر المسائي في البيت المقفر، أحسّ أنه أكثر حزناً، أكثر وحدة منه في أي وقت في العزلة الأبدية لهذا العالم من دونك، ملكتي، ضاعت إلى الأبد في لغز الكسوف، إلى الأبد حقاً، إذ أنه فيما بعد وطيلة أعوام حكمه الطويلة لم يجد أبداً مانويلا سانشيز ضياعي في متاهة بيتها، لقد كسفت مع الكسوف سيدي الجنرال، لقد شوهدت، قيل له، في مرقص شعبي في بورتوريكو، هناك حيث قتلوا «إيلينا» سيدي الجنرال، غير أنها لم تكن هي، شوهدت تشارك في المعرض ليلة Papa Montero, Zumba, canallay rum-breo[10] غير أنها لم تكن هي، شوهدت ترقص الـ«التيكوكيتاك» في «بارلوفنتو» على نغمة «المنجم»، و«الكومبيامبا» في «أراكاتاكا»، و«التامبوريتو» في بنما على نغمة الريح الجميلة، غير أنها لم تكن هي، أيضاً سيدي الجنرال، لقد ذهبت بعيداً جداً، وإذا كان لم يستسلم إلى نزوة الموت فإن ذلك لا يعني أن الحنق هو ما كان ينقصه من أجل الموت، وإنما لأنه

يعلم بأنه محكوم نهائياً بعدم الموت حبّاً. لقد أدرك ذلك منذ أحد المساءات إبان بدايات امبراطوريته عندما استشار إحدى العرافات لكي تقرأ له في مياه إحدى الجفنات مفاتيح القدر التي لم تكن مكتوبة على كف يده، ولا في أوراق اللعب، ولا في تفل القهوة، ولا حتى في أي شيء كان، وإنما في مرآة المياه المنذرة حيث رأى نفسه بنفسه ميتاً بميتته الجميلة أثناء نومه في المكتب المجاور لقاعة الاجتماعات، مضطجعاً على بطنه فوق الأرض مثلما نام منذ ولادته كل ليالي حياته، في بزّته الكتانية الخالية من الشارات، مع لفافات رجليه ومهمازه الذهبي، ويده اليمنى منثنية تحت رأسه على هيئة وسادة، في عمر غير محدّد، ما بين مائة وسبعة أعوام ومائتين واثنين وثلاثين عاماً.

الهوامش:

١- مقماق : المتكلم كأن صوته يخرج من بطنه .
٢- نسبة إلى الفريجيين الذين أقاموا منذ القرن ١٢ ق .م . في المنطقة الشمالية الغربية من آسيا الصغرى ، وكانوا مشهورين بعبادة « سيبيل » آلهة الخصب .
٣- سويتون Suetonio مؤرخ لاتيني وُلد حوالي ٦٩ بعد الميلاد وتوفي حوالي ١٢٥ ب .م -وهو مؤلف كتاب القياصرة الاثني عشر (من قيصر إلى دوميسيان) .
٤- الشاب الوسيم .
٥- نشيد الثورة المكسيكية .
٦- جنس حيوانات درعاء من آكلات النَمل .
٧- عرق قصب السكّر .
٨- شخصية في أحياء السود في مدينة بارانكويلا الكولومبية ، مشهور بقصصه ومفاخره الجنسيّة .
٩- بطل « غواراشا » كوبيّة .
١٠- مطلع قصيدة للشاعر الكوبي نيكولا غيلين .